الفصل الأول

خطوة في مواجة المجهول

في مدة غير عادية ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر استكشف الأوربيون، واكتشفوا من وجهة نظرهم، بقيه العالم. وكانت هذه مواجهة عظيمة مع المجهول. واستمروا في التقدم، وفي عام 1522 عادت من الشرق إلى أسبانيا سفينة واحدة من السفن الخمس الاستكشافية التي جهزت لبعثة ماجلان، عائدة بثمانية عشر رجلا فقط منهية بذلك أول رحلة حول العالم. ومات ماجلان في الفلبين محاولا اجتذاب السكان الأصليين إلى الدخول في دينه بالقوة. وغيرت تصرفات المستكشفين العالم الإنساني بشكل دراماتيكي.

حاول المستكشفون التقليل من الغموض، وذلك بإثراء خرائطهم عن العالم. وطور رسام الخرائط في ذلك الوقت الخرائط العالمية من مستوى الخرائط الرومانية القديمة إلى خرائط ذات معايير شبيهة بالمعايير المعاصرة (Shirle 1984) وربما يكون أعظم رسامي الخرائط جيراردوس مركاتوز (1512-1594) هو من طور مخطط الملاحة المعدل من ثلاثة أبعاد إلى بعدين، وأيضا وضع أول أطلس عالمي. وأعادت خرائطه صياغة الفهم الإنساني وقادت إلى الاكتشافات الناجحة.

وعصرنا هذا هو مرحلة لإعادة اكتشاف العالم وصياغته من جديد ومواجهة المجهول ومحاولة تطوير الخرائط بأفضل ما يمكن؛ كي تكون قادرة على إرشادنا. فقد وصل الإنتاج الاقتصادي للفرد العادي إلى مستويات تفوق ما سبقها عبر التاريخ إلا أن بلايين الناس يعانون من الفقر المدقع. ويتحدى تباين الدخل العالمي ومستويات سوء التغذية ضمائر كل من يعيش براحة نسبية، نحن نكرس نحو 2,5% من مجموع مخرجات الاقتصاد الدولي لمتابعة الأمن العسكري، ولكننا أوجدنا في الوقت نفسه عالماً غير آمن بإنتاج آلاف الأسلحة النووية وعددٍ غير معروف من القنابل الانتحارية[1].

وأضافت التقنية المتطورة لعلمائنا ومهندسينا روائع جديدة في الإلكترونيات وعلم الأحياء والمجالات الأخرى، ومع ذلك هناك أجزاء كبيرة من بيئتنا المشتركة تلفت، ويحيط بمستقبلنا العديد من الأبعاد الغامضة.

ومن المحتمل جداً أن يكون لبعض الاختيارات التي نتخذها جماعياً نحن البشر المعاصرين نتائج بأهمية القرارات نفسها التي اتخذها ماجلان سابقاً على التطور البشري والاقتصادي والبيئي وقضايا الأمن. ولن نتوقع أبداً نتائجها، سواء لأنفسنا أو للآخرين؛ لأننا ـ مثل مركاتور ـ نرسم العالم فقط كما نكتشفه نحن والآخرون.

ما مستقبل الإحصاءات البشرية والاقتصادية والبيئة والأنظمة السياسية ـ الاجتماعية خلال القرن الواحد والعشرين ؟

هذا هو السؤال الرئيس في هذا الكتاب. ولا أحد يعرف على وجه الدقة الإجابة الصحيحة. وسوف نقبل هذا الجواب إذا كنا قديرين جداً، واعتقدنا أننا لا نملك سيطرة على المستقبل، ومن ثم نحول اهتمامنا إلى حياتنا اليومية. ويعتقد أغلبيتنا أن معرفتنا وأفعالنا هي التي تصوغ فعلياً مستقبلنا ومستقبل الأجيال القادمة. ونخشى أن تقودنا التصرفات غير المدروسة، سواء كانت التدمير البيئي أو الحرب النووية، إلى كارثة. ونأمل بدلاً من ذلك أن تؤمن الأفعال المدروسة عالماً من السلام والنجاح. ولذلك نحن نواجه تحدياً حقيقياً: نحن لا نستطيع أن نعرف المستقبل، ولكن من الضروري أن نتصرف في مواجهة ذلك المجهول.

لتحويل التحدي إلى أجزاء يمكن التحكم فيها يمكننا تقسيم سؤالنا العام عن المستقبل إلى ثلاثة أسئلة محدودة: أولا، إلى أين تأخذنا التغيرات المعاصرة؟ ثانياً، ما المستقبل الذي نريده؟ ثالثاً، كم يجب علينا أن نستحضر من القوة والدافعية لنحصل على المستقبل الذي نريده؟ والتعامل مع كل واحد من هذه الأسئلة أسهل مما هو مع السؤال الرئيس (على الرغم من أنه من الصعب القول ببساطته) وتساعدنا هذه الأسئلة إجمالاً على الصراع مع ضرورة الاختيار في ضوء انعدام المعرفة. ومهمة هذا الكتاب هي المساعدة في البحث عن إجابات لهذه الأسئلة، ومن ثم مواجهة التحدي. وخلال هذه العملية سوف ننظم خرائطنا الذهنية ونوسعها قائدة لتصرفنا.

الأسئلة الثلاثة بالتفصيل

إلى أيـن تأخذنا التغـيرات المعاصرة؟ أحد أكثر أساليـب دراسة التغير شيوعاً هو أسلـوب الاستقراء، وهو اتجاه مرغوب فيـه في التخطيط. فإذا كان عدد سكان العالم ينمـو بمقـدار 1.2% في السنـة فإن استقـراءً بسيطـاً للمستقبل سيتوقع نمـواً سنوياً بنسبة 1,2% في المستقبل. وقد يرى استقراء آخر أكثر تعقيداً أن نسبة النمو السكاني السنـوي قد انخفضت من 2,5% لكل سنـة في أواخر ستينيات القرن الماضي إلى نحو 1.2% الآن، لذلـك فإن معدل النمو قد ينخفض أكثر في العقود القادمة. والاستقراء ليس الأسلوب الوحيد لمعرفة إلى أين يأخذنا التغير، ولكنه بداية جديدة.

مـا المستقبل الذي نريـد أن نراه؟ هناك مثل معروف يقول: «الأسوأ من ألا تحصل علـى ما ترغـب فيه هو الحصـول عليه»، ومن المحتمـل إننا جميعاً خبرنـا الرغبة في الحصـول علـى شيء مـا وجميعنا حصلنا عليـه ولم نجد سعادتنا فيـه. وعادة تكون المشكلة هي الفشل في توضيح قيمنا.

لنفكر في ثلاثة أشكال من القيم تتجاوب مع ثلاث قضايا يركز عليها هذا الكتاب: تنميـة الإمكانيات المنفردة لجميع البشر، والحصـول على الأمن والعدل في العلاقات الإنسانيـة، وحماية البيئة البيولوجية والمادية. وتقريباً جميعنا سيوافق على أن انتشار وعالميـة التنميـة البشرية والأمن والعدل في المجتمع مرغوبـة. وبالطبع يمكننا تسليط الضـوء بأشكال مختلفة على هذه القيم والأهـداف العامة، اعتماداً في جزء من ذلك علـى وضعنا داخل المجتمع الـدولي، ودرجة إشبـاع احتياجنـا ومتطلباتنا، ولكن من الصعب فهم قيمنا والأهداف التي تحفزها.

كـم نملك من الدافعية؟ تحليل الدافعية البشرية صعب لسببين: أحدهما أن قيمنا متفاوتة ولذلك من الأفضل أن نركز اهتمامنا على القضايا بشكل متفاوت مع الاهتمام بالدافعيـة. والسبب الآخر أن فهمنا لعمل العالم يميـل إلى الاختلاف بشكل أساسي، ولأن يكـون فهماً ناقصاً ولذلك فغالباً ما نختـار أساليب عمل مختلفة لإنجاز أهداف متطابقـة تقريباً. ويحتاج استكشافنا إلى أن يُصاغ ويعيد صياغة خرائطنا عن القوى المحركة للبشر والأنظمة الأخرى باستمرار.

opelkanal.com

يتطلب توسيع نماذجنا الذهنية واكتشاف دافعيتنا الكامنة لاتخاذ إجراء أن نقوم بما هو أبعد من الاستقراء، وهو التحليل العرضي. وقد يسمح الاستقراء لمستخدمه بناء ثروة من سوق الأسهم (يعتمد عليه المحللون «التقنيون» أو«خبراء البورصة» بشكل كبير) وربما يزودننا أيضاً بتوقعات جيدة عن المستقبل العالمي، ولكن له قصوره الواضح. وهناك قصة قديمة عن امرأة سقطت من أعلى بناية الإمبايرستيت وحين وصلت في سقوطها إلى الدور الواحد والخمسين سألتها صديقة تقف بقرب النافذة عن شعورها، فأجابت: «جيد حتى الآن». والسبب في أن معظمنا لا يرى إلا القليل من الدعابة الساخرة في هذه القصة أننا ندعم تلقائياً المنطق الاستقرائي بالتحليل العرضي، انظر إلى العلاقة بين السبب ـ والأثر.

نظريًا، يتفوق التحليل العرضي على الاستقراء. في سوق الأسهم مثلا، يوجه (الأصوليون) اهتمامهم إلى وجود أو غياب القوة الأساسية للشركات التي قد تؤدي في نهاية المطاف إلى ارتفاع أسعار الأسهم ومن ثم ارتفاع دخلهم. وتوفر التوقعات الجوية مثالاً آخر على اختلاف التحليل العرضي عن الاستقراء، وقد يكون أفضل منه. فلو أن السماء أمطرت ثلاثة أيام متتالية فإن التحليل الاستقرائي سيتوقع غداً مطيراً وقد يكون هذا تنبؤاً جيداً ومعقولاً. وفي المقابل، سوف يتنبأ عالم الأرصاد الجوية، الذي يعرف بأنه من المرجح أن مناطق الضغط المنخفض فوقنا الآن ستسمح بضغط مرتفع عند منتصف الليل، وأن مناطق الضغط المرتفع تسبب سماء صافية، بيوم شمس. وبالمثل قد يقودنا التحليل الاستقرائي إلى توقع استخدام العالم لكمية كبيرة من البترول لتأمين حاجته من الطاقة. وقد يهتم التحليل العرضي بتقدير كمية الزيت الموجودة في قشرة الأرض، ويتوقع ارتفاع استخدام البترول، ثم هبوطه.

وعملياً، فإن التحليل العرضي صعب وربما لا يكون دائماً أفضل من الاستقراء، والمشكلة الرئيسة هي تحديد العلاقات العرضية المناسبة. ويواجه طلاب قسم السياسة الدولية هذه المشكلة، بالإضافة إلى توقع الحرب. يزودنا الاستقراء بحجم أو كثافة الصراع ـ حتى لهؤلاء الذين يحاولون دراسة منظومة الحرب ـ بقاعدة ضعيفة للتوقع؛ لأن النماذج السابقة للحرب تكشف تذبذباً أساسياً. بدلاً من ذلك يبحث معظم الباحثين

عـن أسباب الحرب: تفـاوت القوة بين الدول، وتضارب المصالـح، والأعراق المتنافسة، والصعوبات الاقتصادية، وطبيعة اتخاذ القرارات الحكومية، وسوء تقديرات القيادات السياسيـة، والعـداء الإنساني، وما إلى ذلك. والمشكلة في التحليـل العرضي للحرب أن عدداً كبيراً من الأسباب يتداخل مع بعضه بعضاً بأشكال معقدة جداً.

ويصبـح التحديد للتغيرات العرضية معقداً في الكثير من التحليل العرضي؛ لذلك يكـون من الصعب على المحللين احتسـاب جميع العلاقات على أنها قادرة على التنبؤ. ولذلـك يتجه المحلل في بعض الأحيان إلى المحـاكاة الحاسوبية للعلاقات والتي تسمح بإجـراء تغـيرات تجريبية للتغـيرات المستقلـة، أو المسببات، ويعيـد بسرعة حسابات النتائـج لمتغير تابع أو تأثيره. مثلاً، يستطيـع طالب في تخصص طاقة المستقبل تغيير قيمة مصدر بترول غير معروف باستخدام نموذج الحاسب المناسب ويمكن عن طريق الحاسـب معرفة التغـيرات الممكنة في عمليـة التحويل إلى طاقـة المستقبل المتجددة. وسـوف يحلل هذا الكتـاب التغير العالمـي، مستخدماً الاستقـراء والتحليل العرضي، وهما مفتاحان أساسيان للخرائط الذهنية.

إلى أين تسير دراستنا؟

ونكـرر أن التحـدي الرئيسـ لنا أنـه لا يمكن أن نعـرف المستقبل، ولكـن يجب أن نتصرف كما لو كنا نعرفه. وتعد محاولة استقراء الاتجاهات والتحري بأدوات بسيطة لمعرفـة إلى أين يمكن أن يقودنا المستقبل مكاناً جيداً لشن هجومنا على هذا التحدي، وسيقدم الفصل الثاني معلومات خاصـة بالاتجاهات العالمية الرئيسة، بالإضافة إلى أنـه يزودنا بدراسة شاملة لعدة أساليـب استقرائية مختلفة. وباختصار، فإن الهدف الأساسـي للفصـل الثاني هـو بذل جهد أولي للإجابـة عن السـؤال الأول من أسئلتنا التحليلية: إلى أين يأخذنا التغير العالمي؟

وسيلفـت الفصل الثالث انتباهنـا إلى ما وراء السؤال الأول للكتاب، ويبدأ بتعريف السؤالـين الآتيين: ما المستقبل الـذي نريده؟ وماالدافعية التـي نملكها؟ وسوف يقوم هذا الفصل بتغطية النقاش المطول والذي بدأ لتحديد الأهداف العالمية، كما سيزودنا

أيضـاً بفهم أساسـي للتفكير العرضـي لاستكشاف الفعل مع عـدم إغفال الأهداف. وسـوف يبني الفصل الرابع علـى هذا النقاش ويعرفنا على نمـوذج برنامج المستقبل العالمي (IFs) بوصفه أداة بحث أشمل للاتجاهات والقوى المحركة العرضية. وستحول الفصـول من الخامس وحتى الحادي عشر اهتمامنا إلى مناطق مواضيع دولية معينة وأنظمـة: التعداد السكاني، والاقتصاد، والغذاء والزراعة، والطاقة، والبيئة والأنظمة الاجتماعية السياسية. وسوف يوجه كل فصل جزءاً من اهتمامنا إلى قضايا وتوجهات معاصـرة. ولكن جميع هذه الفصـول تركزعلى التحليل العرضـي وإثراء قدرتنا على مواجهة أسئلة القوى المحركة العرضية والدافعية البشرية الكامنة.

ويصبـح السؤال عـن الدافعية البشريـة معقداً، كلما ازداد عمـق واتساع النقاش العرضـي للتغـير العالمـي. ويصبح موضـوع النتائج الثانيـة والثالثة للأفعـال مقلقاً. وهنـاك على سبيل المثـال، جدل واسع عـن نتيجة توزيع الغـذاء والمساعدات الأخرى علـى الـدول الأقل نموا. وعادة لا يتركز هذا الجدل علـى التأثير الرئيس للمساعدات علـى المستفيديـن، ولكنه يتركزعلى المضامـين الثانوية للمساعـدات بسبب التغيرات في الأنظمـة الاقتصاديـة والسياسيـة للمتلقين أو مـا تعنيه بترتيب ثـان أو ثالث لهذه التغيرات على المدى الطويل لمتلقي المساعدات.

مثـل هذه النتائـج الثانوية وما يتبعها من الصعب دراسـة القضايا بشكل مستقل. ويصبح كل شـيء مرتبطاً بالآخر، وتكون المتابعة من خلال النتائج مشتتة لأي محلل. وأحـد الطرق للتغلب على هـذه الصعوبة هو استخدام الحاسـب الآلي وإذا استطعنا إظهـار صعوبـة هذه التفاعـلات المعقدة من خلال محـاكاة أو نمـوذج حاسوب فإننا حينها نستطيع أن نجعل الحاسب يتابع توقعات تصرفاتنا.

سوف يسمح لك نموذج المستقبل العالمي (IFs) أن تربط نفسك بتجربتك وتربطها بالتدخل البشري مـع تقييمك لمدى الدافعية البشرية (والنتائـج الثانوية والثلاثية). وقصـد به أن يكون أطلسـاً حديثاً وخرائط ذهنية وأداة لمساعـدة مستخدميه لزيادة وتنقيح خرائطهم الذاتية. ونموذج IFs مهم في استخدامك لهذا الكتاب. ونأمل منكم الذهاب لتصفح الموقع www.ifs.edu.edu وهناك نسخ للتحميل.

وكمـا قال الفيزيائـي الدانماركـي Niels Bohr نيلـز بوهر: «التوقـع صعب جداً وخاصـة إذا كان عن المستقبـل» (Watkins, 1990: 152). وعلـى الرغم من أن IFs سوف يساعدك على مواجهة أسئلتنا الثلاثة إلا أنه ليس عصا سحرية. وحتى مع وجود أفضـل محـاكاة حاسوبية، وقد تكون بعض التوقعات المبنية علـى المحاكاة الحاسوبية صحيحـة لأسباب حقيقية ـ فهي تعكس فهماً عرضيـاً محاكياً أو خريطة لكيفية عمل هذا العالم. وليس هناك بديل للخيار والتصرف حتى، ولو كان الاختيار تصرفاً سلبياً. لنحسن خرائطنا ونستكشف ونصوغ المستقبل بأفضل ما يمكننا.

ملاحظة:

1- الخـبر الرائع أننا حديثـا في عام 1990 أنفقنـا 4% من GDP العالمي علـى قطاع الدفاع، وكان لدينا حجم الميغا طن (قوة انفجارية) بمقدار مرتين.

obeikandl.com